وهذا كلام فى غاية الوضوح — ولكن هنا ملاحظتان جديرتان بالنظر :

أولاهما : يفهم من كلام الجاحظ النهى عن محادثة العامة بكلام الخاصة أو العكس ، كما يفهم منه أنه أصبح فى عهد الجاحظ مستويان اجتماعيان للكلام باللغة ، بل مستويات — تماما كما هو الأمر بيننا الآن — وأن الخروج عن ذلك مما ينبغى التحذير منه ، لأنه يعرض صاحبه لموقف اجتماعى محذور .

وثانيتهما : أنه قد وصل الأمر بتمايز مستويات الاستعمال درجة تميزت بسببها النوادر (النكت) التى تقال بالفصحى أو العامية تمايزا يكاد يفصل بينهما ؛ إذ يؤدى التصرف فى النادرة من أحد المستويين إلى سماجتها وبرودتها.

ثانياً : روى عن بعض العلماء فى تلك الفترة أنهم كانوا إذا تركوا أنفسهم على سجيتها يتكلمون كلام العامة بألفاظ غير منقاة ، وتسامح فى الإعراب ، وميل إلى إسكان أواخر الكلمات ،

وقد روى عن الفراء وهو فى حضرة الرشيد حين قال له : أتلحن يا يحيى ؟ أنه أجاب : يا أمير المؤمنين ، إن طباع أهل البدو الإعراب ، وطباع أهل الحضر اللحن ، فإذا حفظت أو كتبت لم ألحن ، وإذا رجعت إلى الطبع لحنت .

وجاء فى إنباه الرواة « كان ثعلب لايتكلف إقامة الإعراب فى كلامه إذا لم يحس لبسا فى العبارة ، وذكر ذلك لإبراهيم الحربى — رحمه الله — فقال : أيش يكون إذا لحن فى كلامه ، كان هشام النحوى يلحن فى كلامه وكان أبو هريرة يكلم صبيانه بالنبطية (١) .

وأمثال هذه الروايات كثير ، مما يدل — كما قال الفراء — على أن لغة العامة أصبحت طبعا وأن اللغة الفصحى للحفظ والكتابة ، وإذا كان الفراء

(١) إنباه الرواة جـ ١ ص ١٤٠ .